حاجة في نفس يعقوب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عزالعرب علي

يعقوب الذى نقصد إليه غير نبي الله يعقوب أبي يوسف عليهما السلام . وإنما هو رجل موسيقى عاش إلى مستهل القرن العشرين فى مصر ، واتخذ من مناعمها ومسارها رفاهية ورغداً

أقبلت عليه الدنيا ، وتوافرت المناعم ؛ وكلما زهد فيها وتواضع لها ، تزاحمت عليه بخيراتها ، وأقضت مضجعه ببركاتها ... فإذا رغب فى سكون النفس وطمأنينتها نزل عما أفاض الله عليه من خير إلى المحتاجين والمحرومين والسائلين وذوى المتربة من فقراء الدنيا ...

ولكن الأيام مجنونة وهى به مشغوفة ؛ فما إن ينزل عن مرافقها حتى تزيده منها وتغمره فيها ؛ حتى ألفت نفسه الجشع ، واستولى عليها الحرص ، وملكها الشح

هنالك هدأت ثائرة الأيام أن بلغت بتلك النفس المتواضعة أسباب الجشع ومناحى الصلف وتصعير الخد ، وألقت به فى تيار الحوادث يتقاذفها وتتقاذفه فتكاد تغرقه

هو رجل موسيقى كما أسلفنا ، وإن لم يشتهر له دور ، أو يتداول له لحن ، أو يعرف عنه أنه عزف بآلة ، أو تغنى بموشح وموال أو حتى صاح : « يا ليل »

وقد يبدو هذا عجيباً ، وهو فى الحق عجيب فى غير مصر ، فمصر بحمد الله مكتظة بهذا الصنف من الموسيقيين ، أوأدعياء الموسيقى على الأصح ، ومذهبهم فى هذا أن ليس من الواجب الحتمى أن يلم الموسيقى بأى لون من ألوانها أو يتعرف ناحية من ثقافتها ، أو أن يتفهم حتى مذهباً من مذاهبها ؛ وبحسبه أن يحشر فيها حشراً ، فإذا هو بماله وثروته شيخ من شيوخها ، يعقد له فيها لواء ، ويقام له تمثال ، ويزين صدرها بصوره الفوتوغرافية والمائية والزيتية ، وهدمت دارها إن لم تتسع لما ينفخ الشيطان به صدره من ألوان الهذيان

وإذن فصاحبنا يعقوب موسيقى ، وموسيقى من الطراز الأول ، أليس جاهلاً بفنون الموسيقى ؟ ثم أليس هو موفور الجاه موفور الثراء ؟ وما دخل العلم فى حياة الموسيقى وهى أشد ما تكون حاجة إلى المال ، وأهل العلم فى هذا الفن مفاليك مغمورون؟ ثم أليس المال يبنى الدور ويبتاع الآلات الموسيقية من عود وكمان وناى وقانون ودف وطبلة ومزمار وصاجات ، وكذلك كتب الموسيقى . وإذا كانت الدار مشيدة وفيها آلات الموسيقى على اختلاف أنواعها ، وفيها أيضاً كتب فى الموسيقى للخانى وأشباهه من العلماء ، فما الذى يعجز الموسيقى أن تذاع ؟ وماذا يقعد بها أن تنتشر ؟

أنا أميل لمذهب صاحبنا يعقوب رضى الموسيقيون

أم غضبوا ، فلقد طالت عليهم العصر وما ابتنوا للموسيقى كوخاً ، ولا شيدوا لها عشا

ليختف العلم الفقير إن أراد الجهل الغني أن يخفيه. وليحرس العلماء المدققون إن شاء الجهلاء المثرون أن تقطع ألسنتهم ، فالدنيا للمال ، والحياة لأصحاب المال ، وعند الله أجر العلماء ، وهو أجر لا يغني فإنه لا يتجاوز بضع صفحات فيما يسمونه التاريخ

وفي التاريخ صحف مدخولة ، وحوادث مدسوسة ومفاخر مزورة ، ومآثر مرتجلة تسجلها الرشا ، وتدونها الولائم ، ويسطرها البذل الوضيع ، ويحبرها العطاء المسف ؛ ووسيلة هذا كله ميسورة لصاحبنا يعقوب ، موفورة له لا تثقله ولا تشق عليه

وأراد صاحبنا أن يطمئن أيضاً إلى هذه الناحية من التاريخ ، فأسدى إلى أحد المؤرخين يداً هزيلة عدّها له مكرمة وأثبتها له حسنى

وانقضى يوم وبعض يوم ولما يهضم المؤرخ المضغة ، وإذا بصاحبنا تحف به شيعة من مموهي الحق ، مزيني الباطل ، كسالى فارغين ، تكفي إحدى الولائم لخراب ذممهم وبيع ضمائرهم

واختلى الجميع بالمؤرخ ، وتناوب الرهط المتمطل ذكر مآثر الموسيقي يعقوب ، فهذا ينوه بأياديه على الفن ويذكر في هذا قصصاً ، وذلك يعدد تضحياته في الموسيقى ويرتجل لذلك حوادث ، وهذا يسهب في مواهبه الموسيقية ويخترع لذلك روايات ، وذلك يطيل في عبقريته الفنية ، ويصطنع في ذلك خرافات. وهكذا تناوبوا المفاخر والمآثر ، وصاحبنا يستغفر الله لمخجل التواضع ، وكلما تصنع التعفف عن المدح والزهد في الثناء زادوا الكيل حتى أصبح حمل بعير

هناك نبتت فكرة تاريخ هذا العبقري المتفرد ، فزينوا للمؤرخ نهز الفرصة واقتناصها وصاحبنا يتأبى ويتصنع العفة ، حتى إذا خضع لسلطان التواضع نزل على رغبة صحبه وشيعته احتراماً لجمع الكلمة ، وغلبة الرأي ، ونفح المؤرخ بدرة من المال يستعين بها على رأب الصدع ونفقات الطبع

استخار المؤرخ ربه فأخاره ، واستعانه فأعانه ؛ وشرع يمهد للتأريخ ببحوث فنية في الموسيقى آدابها وفلسفتها وتاريخها وتطوراتها حتى قطع في ذلك شوطاً بعيداً نقع الغلة وشفى الأوار .

ولكن العلم دائماً ظالم جبار ، يستهوي أهله ، ويتملك مشاعرهم ويستحوذ عليهم ، ثم يبطش بهم ويهلكهم ...

وكذلك كان شأن المؤرخ ، استهواه البحث فأشبع منه نهمته ، وأغفل غير عامد صاحبه يعقوب إلى حين .

يا غضبة السماء ، ويا نقمة الأرض ، ما هذا الذي يقترفه المؤرخ ؟ أيطغى العلم فينسيه شخصية شيخ الموسيقى ؟ ما العلم ؟ ما البحث ؟ ما الفلسفة ؟ أمام باني البناء ، ورافع اللواء ، ومقيم الحيطان ، ومشتري الميدان ؟

— الويل لك أيها المؤرخ ، كيف لم تستخدم علمك وتستعبد مواهبك في وصفي والإشادة بذكري ؟ أعميت عن صورتي ؟

— رفقاً أيها الفنان ، سيأتي الوقت الذي أنصفك فيه ، وأشيد بذكرك في مجاليه ، متى فرغت من حق العلم وتقصّيه

— علم ! وهل للعلم حق يتطاول إلى عظمتي ؟ وأي علم هذا الذي لم يلهمك مفاخري ، ويوحي إليك

ما آثرى؟ ما نفحتك المال لتنصر العلم وتؤدى أمانته وتغفل أمرى وتنسى مكانتى ؟ خسئ العلم وخسئ أهلوه ...

— أيها الفنان ، حذار عاقبة الطغيان ، فلئن جنت الدنيا بك اليوم فبسمت لك وترامت عليك لقد تكشر لك غداً وتنقلب عليك ، والأيام قلب والزمن غدّار

— أترى هذا طغياناً أيها المؤرخ ؟ شهد الله ما أسمع منك إلا خرفاً . ما كان هذا طغياناً وإنما هو وفاء للنفس ولا لوم أن يكون الإنسان لنفسه وفياً ، ومن الوفاء للنفس أن يؤثرها صاحبها بالعظمة كلها ، ويختصها بالإجلال أجمعه ، فإذا استطاع أن ينصب لها فى كل حى تمثالاً ويقيم لها فى كل منفذ نصباً ، وقصر فى ذلك كان قصوره كفراً وجريمته نكراً

والعجب العاجب أنك تجهل هذا وتدعى العلم ؛ وأعجب منه أن يتحرك لسانك بين شدقيك ، ثم يرمينى بالطغيان ، يا خجلة الحياء ، ويا ضيعة الأدب

— أيها المِسفَن ! إن لم يكن هذا الذى تقترف طغياناً وعَنَتاً ، فما هو الطغيان والعنت إذن ؟ لقد جاوزت المدى ، وأسرفت فى ...

— يميناً لأقطعن مِقْولك ، وأخرسن لسانك ، وأحطمن قلمك . فما ترفع بعد اليوم صوتاً ، ولا تخط حرفاً .

هنالك ملك الغضب صاحبنا يعقوب فخار خوارا زعزع جوانب المكان ، وفزعت الشيعة . فجاءوا يهرعون إليه ، ينهنهون من غربه ، ويطفئون نار غضبه ، حتى إذا سكن هائجه ، وهدأ فائره ، تباكى وبدا له شهيق أغرق الشيعة فى دموع الكذب والنفاق

ما بك يا سيدنا ؟ أنفسنا الفدا إن أجدت

فقال فى تيه المكظوم وعبرة المختنق :

ضحيت بشبابى وأرقت ماء حيائى ، واستجديت كرم الناس وسخاءهم للفنون وخدمتها والموسيقى ، ونهضتها ، فكان أن أهمل شأنى ، وغمط قدرى ، وأغفلت حتى صورتى . وها أنتم أولاء ترون أنى وإن لم أبذل فى هذا المجهود من مالى درهماً أو ديناراً رغم ما أفاض الله به علىّ من الثراء والنعيم ، فإنى توسلت بجاهى للشحاذة واستمنت بحيلى للاستجداء فجمعت للموسيقى ما جمعت ، وهيأت لها ما هيأت

ثم سحت عيناه وخنقته العبرة فاحتبس صوته ..

يا للهول

هلمت قلوب الشيعة وانخلعت أفئدة الرهط ...

أيبكى السيد وما يزال المؤرخ يتنسم رَوْح الحياة ؟ الموت ... الموت ... أهون العقاب موته وتحريق مخلفاته

وانتهوا فى ذلك إلى قرار ما كاد يجف لعابه حتى كان نافذاً ، هنالك قاموا إلى آثار المؤرخ فحرّقوها وإلى مؤلفاته فمزقوها ، وظنوا أنهم بذلك يطمئنون وتسكن أفئدتهم ويستريحون ، ولكن عزة العلم تأبى الاستكانة والخنوع ، وكرامته ترفض المذلة والخضوع ، فسجلت تاريخ يعقوب وجملته فى الموسيقيين مثلاً . ووالله ما تخطى المؤرخ الحق ولا تعدى الصواب ولا خان أمانة العلم

عبد العزيز عهد